بين الكلام والخطاب

❑ علم الدين عبد اللطيف*

ربما كان من المفيد دراسة ورصد التحول الذي طرأ على مفهوم اللغة بعد نشوء المدارس الألسنية ، وتأسيس علم مستحدث للغة ، كان بمثابة كشف عن دور، وفهم جديد للغة كنظام ومفهوم ، وذلك في ضوء نظريات التحليل اللغوية والفكرية المختلفة ، من المدرسة الكانطية ... وحتى تفكيك رولان بارت.

وإذا كان علماء اللغويات الأوائل قد اهتموا باللغة منطلقين من علاقتها بأساسها الاجتماعي – نسق من الرموز – فإن الدارسين اللاحقين والحداثيين ، يعتبرون أن اللغة نتاج لمجتمعها ، واستندوا إلى مجموعة قواعد تتحقق بها اللغة المنطوقة عادة... ليصلوا إلى أصل العادات والشعائر والإيماءات ، وأصل كل الظواهر الثقافية التي يتضمنها إبداع اللغة نفسه ... فما هي اللغة ؟ وما هي أهم المراحل التي شهدها تطور علم اللغويات الحديثة ؟ وكيف تمت إعادة النظر بالمفاهيم القديمة المتعلقة باللغة ؟ ولماذا ؟

سنستعرض هنا ، وبإيجاز، بعض النظريات المتعلقة بعلم الإشارات، وصولاً لما سماه فرديناند دي سوسير (السيميولوجيا) ، وننقل بعض أقوال ونظريات دارسي علم اللسانيات الأوائل ، نشرح بعضاً من التكامل والتعالق الذي نشأ ولا يزال يتطور في إطار تحولات جدلية تاريخية ومعرفية، علماً أن ما نتج وتفرع عن هذا العلم، لم يستقر ويتكرس إلا بعد الحرب العالمية الثانية.

الاهتمام بالكلام – كتلفظ مباشر – لم يكن من الأمور التي يعول عليها كثيراً ، ويبدو التركيز في المقام الأول على المواضيع التي نتكلم عنها ، وهي في حقيقة الأمر محل الدلالة وليست الدلالة ذاتها ...هي مدلول عليه بكلامنا ، وكلامنا هو الدا ل ، أي الطرف الأول في مسألة فهم اللغة ، من حيث هي علاقة غير منفصمة بين دا ل ومدلول ، مهمتها التأسيس لوجود الأشياء باللغة ، وليس بواسطتها أو عبرها.

هذا الفهم الجديد لمفهوم اللغة والكلام ، مر بمراحل مختلفة ، مرافقاً لتطور الفكر والفلسفة في أوروبا خاصة ، وباعتبار المذاهب الفلسفية متغيرات ثقافية تؤدي بالضرورة إلى تغير مقابل في نظرة الإنسان إلى لغة التعبير واستخدامه لها ، مما أتاح نشوء نظريات علم

* باحث سوري.

اللغة والمدارس الألسنية الحديثة، بحيث أصبح مصطلح /**سجن اللغة** / شائعاً كثيراً في الأوساط الفكرية والفلسفية، فما هو سجن اللغة ؟ وكيف تكون اللغة سجناً؟ ولأي شيء ؟

إن (**المعنى**) بالنسبة للفهم الإنساني التقليدي، هو شيء يمكن خلقه، أو تخليقه من قبلنا ، لكن ذلك مشروط بوجود القواعد التي تحكمه مسبقاً، ومهما سعينا وراء أصل المعنى... فسوف نجد دوماً بنية سابقة هي أساس الانطلاق، هذه البنية لا يمكن أن تكون مجرد نتيجة للكلام، فلا يمكننا أن نتكلم على نحو متماسك دون هذه البنية أصلاً... ومن المستحيل أن نكتشف الدليل الأول الذي تبدأ منه كل الأدلة الأخرى، لذلك وجب التسليم بوجود دليل ما مفترض مسبقاً.

/**سوسير**/... عالم اللسانيات السويسري... افتراض/ وجود أدلة أخرى تختلف عن سابقاتها، وتلك تفترض أخرى لاحقة... انطلاقاً من قاعدة أن الخطاب - الذي يمنح اللغة معناها – يفترض وجود الطرفين... المرسل (الناطق)... والمستجيب... أو المتلقي، وبدون وجود الطرفين معاً لا يكون ثمة لغة... فما معنى أن يكلم الشخص نفسه؟... ولماذا صار النطق صوتاً مسموعاً ؟... لو كان يكفي التفكير بالصوت الداخلي لما كان من مبرر مفهوم للنطق أصلاً... يمكننا أن نفترض إذن أن النطق كان من أجل الآخر.

النطق مع تلقيه يصبح لغة، لكن من أين أتى المرسل؟... كيف صار مرسلاً؟... لكي يكون قادراً على نقل المرسل ... المحمول... المقصد... المعنى، لا بد من أن يكون ثمة لغة قد أوقعته في شراكها وأسسته.

في البدء كانت الكلمة... ماذا تعني هذه العبارة؟... مبدئياً تحيلنا إلى مفهوم اللوغس الذي تكلم عنه فلاسفة أوروبا والآباء الكنسيين منذ اكثر من عشرة قرون باعتباره الكلمة الأولى المكونة للطبيعة والأشياء ، اللوغس في جذرها اللاتيني، تحيل إلى اللغة ... اللغة المتبادلة... وبقيت حتى **هيغل** ذاتية المرجع... ثم طرأ التحول الكبير عليها كمفهوم بحيث تم إكساؤها بحركيتها ، وصارت تعني الحوار المنتج... ومن ديالغو انتقل العالم إلى الديالكتيك، قبل ذلك كان **فيورباخ** قد جلّس الطاولة كما قال **ماركس**، وأصبح حتى السجال فيما بين الآلهة والانسان يحتاج إلى فاعلية ينتجها التواصل ذاته، الشيء المستقبل سمع لفظة (**كن**)... ماذا لو لم يسمعها؟... ليس هنا مجال الدخول في مسألة الأسبقية، واعتبار الشيء موجوداً مسبقاً – أو لم يكن - كي يسمع، لكن الماركسيين أكدوا على حوار الأشياء... صراعها الذي لا يعني إفناء واحد للآخر. الديالكتيك هو اشتباكها في كل شيء مع استمرار نفي الحالة السكونية... يشرح الياس مرقص... اللوغس هو الكلمة في حركيتها... تفاعلها... البراكسيس الماركسي أضاف إلى فيورباخ جدلية تطور الطبيعة عبر حوارها التاريخي... لن نستعمل هنا كلمة صراع المتناقضات، بل نقول اشتباك... تفاعل الحوار... الإستحالات التي تشهدها الأشياء نتيجة اشتباكها التاريخي... تؤثر في بعضها... تولد... تنتج ... في النهاية هو حوار... هكذا فهمه الماديون.

يذهب **تودوروف** إلى أن القيمة لا تظهر إلا في اللحظة التي يضع فيها المتلقي أو القارئ اللغة أو الكتابة موضع المساءلة، التلقي بالاستماع أو بالقراءة هو تحديد وتثبيت للقيمة، أو بمعنى أدق هو إعادة إنتاج بشكل أو بآخر، الألفاظ ليست كياناً أو حالة مكتفية بنفسها، بل تتوسط ما بين النطق أو الكتابة من جهة، وبين المتلقي وجودياً وحتى معرفياً، من حيث أن المتلقي هو الفاعل الذي يحدد قيمة النطق، ولا يمكن تصور الألفاظ بعيداً عن متلقيها الذي يستقبلها ويصدر

عليها الحكم بالقيمة، فهو بعض حضورها، وهي امتداد لوجوده الذي يفرض تغيره عليها، وماضي اللفظة على مستوى التولد كمستقبلها على مستوى الاستقبال، كلاهما عنصر تكويني من عناصرها.

سوسير لم يكن مهتماً بما يقوله البشر مباشرة، ولذلك درس **اللسان** وليس الكلام، ناظراً إلى الأول كواقعة اجتماعية موضوعية... وإلى الثاني –الكلام - بوصفه نطقاً عشوائياً لا يمكن التنظير من خلاله، لقد تم الانتقال من النطق... الكلام... اللفظة... إلى **الخطاب**، ذلك أن النطق هو كلام أو كتابة ينظر إليها بوصفها مسألة موضوعية ترى كسلسلة من الأدلة دون ذات أو فاعل، أما الخطاب، فيعني لغة تفهم بوصفها نطقاً يحتوي على ذوات متكلمة، وعلى قراء أو مستمعين. عالج سوسير موضوع السيميولوجيا من وجهة نظر لغوية لا فلسفية كما فعل من قبله، وأقام علاقة وثيقة بين اللغة والسيميولوجيا، يقول شارحاً بعض ملامح مشروعه هذا:

(اللغة نظام علامات تعبر عن الأفكار، ويمكن مقارنتها بأبجدية الصم والبكم، والطقوس الرمزية، بيد أنها أعظم من كل هذه الأنظمة، هي علم يدرس حياة العلامات داخل المجتمع، وهوجزء من السيكولوجيا الاجتماعية، وسوف أسميه (سيميولوجيا) من الكلمة اليونانية سيميو= الاشارة، وستوضح السيميولوجيا مم تألف الاشارات، وما هي القوانين التي تحكمها ..) ويستطرد متداركاً ومؤكداً **(وبما أن هذا العلم لم يوجد بعد، فلا يمكن لأحد أن يحدد ما سوف يكون، لكن له الحق في الوجود، وفي احتلال مكان متقدم، وما علم اللغة سوى جزء من هذا العلم، والقوانين التي اكتشفتها السيميولوجيا سوف تطبق على علم اللغة..)** .

قال سوسير بالإشارة اللغوية إذن، واللغة حسب مفهومه مجموعة من الإشارات يرتبط بعضها ببعض بواسطة علاقات محددة أصلاً، هي :

ـ **علاقة التوليد**: حيث يولّد نظام نظاماً أخرا، فاللغة العادية تولد الاستنباط... والكتابة العادية كتابة بريل، حيث يبنى النظام الثاني انطلاقاً من النظام الأول، وبحيث تكون العلاقة توليدية بالفعل وليست اشتقاقية تفترض وجود تطور وتغير تاريخي.

ـ **علاقة التماثل**: وهذه لاتستفاد من النظام نفسه، بل من بعض الصلات المشتركة بين نظامين متغايرين ... يقول **بودلير** (إن الروائح والألوان والأصوات تتجاوب) .

ـ **علاقة التفسير** : وذلك بين نظام مفسر، وآخر مفسر، وهي علاقة محورية بالنسبة للغة، يمكن تحليلها إلى مستويين. مستوى الوحدات الدالة (**المونيم**) ومستوى الوحدات غير الدالة (**الفونيم**)... وهكذا وفق هذه الأنظمة، أصبحت اللغة هي المفسر الوحيد لجميع الأنظمة السيميوطيقية .

أما **رولان بارت**، فقد أراد أن يصوغ تصوراً شاملاً للتجربة اللغوية في كتابه / سيميولوجيا النقد الأدبي /... وذلك بتفسير كل علامة ترتبط باللغة المنطوقة والمكتوبة، فوضع كل كاتب في لغته / بيئته الاجتماعية / لتفسير الاختيار الاتفاقي للكلمات .

إن التحول الجذري الذي طرأ على النظر إلى اللغة حسب بارت، هو التحول من نظرة ترى اللغة وعاءً، أو أداة شفافة، يمكن بواسطتها تصوير أو تمثيل شيء في العالم الخارجي ـ لنتذكركانط - ... أو حتى مفهوم عقلي ولدته تجربتنا الحسية للعالم الخارجي، إلى نظرة تضع حداً للثنائيات القائمة على الحضور المتزامن

للداخل والخارج في اللغة ، نظرة تعترف بوجود الداخل فقط، على أساس أن اللغة ليست تمثيلاً شفافاً للمعنى الخارجي، لأن فكرة الاستخدام الحرفي ، أو المرجعي للغة هو وهم يرجع إلى أننا ننسى الجذور المجازية للغة حسب بارت ... في حين أن العصر الكلاسيكي للفلسفة الغربية / حتى نهاية القرن الثامن عشر / كان قد أكد على المفهوم التمثيلي للغة ، لأن المعرفة الإنسانية ، وحدود العقل البشري ،كان يحددهما نظام مرتب ومنظم للمعرفة ، وكانت المعرفة في التعريف هي مجموع الملاحظات والانطباعات الحسية التي يتم تقسيمها وتبويبها عن طريق اللغة ، كنسق مرجعي ترتبط بعمليات المنطق، والانسحاب الحقيقي للغة كوسيط تمثيلي يبدأ مع نهاية العصر الكلاسيكي(بداية الانسحاب إلى الداخل)... إلى داخل العقل ، وحينما ينسحب مركز المعرفة، تنسحب معه اللغة إلى داخل العقل ، لتبدأ عمليات الدلالة المغلقة داخل الأنساق اللغوية المستقلة عن الخارج ، وتصبح اللغة عبارة عن دالات ومدلولات تكوّن المفاهيم داخل العقل ، وليست مجرد تكوينات مادية أزلية خارجه .

فريدريك جيمسون ، تكلم عما دعاه (سجن اللغة) وهو عنوان لكتاب أصدره عام 1972 / أي أن اللغة هي سجن العقل ، ولم يكن جيمسون مخترعاً أو مكتشفاً في نظر الدارسين، ولم يأت بهذا المفهوم من الفراغ ، ولاحظوا أنه تطوير لمفهوم سابق ، ابتدأ مع نقاد الكانطية المثالية ، الذين قالوا إن العقل أصبح سجناً للمعرفة بموجب مثالية **كانط**... وكانط الذي قال **بسجن العقل** ، كانت المعرفة عنده غير ممكنة من دون العقل ، لأن المعرفة موجودة خارج العقل، وتكويناً أزلياً موجوداً قبل وجوده، حيث يولد الإنسان وعقله لوح خال، فكيف يمكن إدراك ما يقع خارج عقلنا ؟ وهكذا فإنه وفق كانط نكون حبيسي عقولنا وحواسنا ، وعاجزين عن إدراك ما يقع خارج حدود العقل، وقد سار نقاد الكانطية في هذا السياق ، لكنهم طوروا المفهوم ذاته ، فقالوا أن العقل هو في الحقيقة سجن المعرفة، في رد فلسفي على مثالية كانط، التي هي غير قادرة على إدراك المعرفة وفق مثاليتها ذاتها، وبدأ الشك عندهم في قدرة العقل الكانطي على إدراك المعرفة الكاملة أو اليقينية ، وقالوا أن العقل هو سجن المعرفة ، أي أن المعرفة موجودة بالأصل في العقل، **داخله** وليس **خارجه**، وبهذا يصبح بالإمكان الوصول إلى الحقائق، لأنها ببساطة موجودة داخل عقولنا ، لم تتكون قبلها ، ولن يكون لها وجود بعدها، أي تدور معها وجوداً وعدماً. وبهذا أصبح من الممكن أن تنسحب صورة السجن من العقل لتلتحق باللغة ، ومع التحول الجديد والكبير في العلوم والمناهج التجريبية ، التي طورت علم اللغويات ، وارتبط العقل بالتجريب وخضع له، وأصبح التفكير أداة من أدوات العقل .

وإذا كان الأمر كذلك وفق مفهوم سجن اللغة ، فإن بناء اللغة هو الذي يحدد معرفتنا بالعالم ، إذ ليس بالإمكان الانتقال من اللغة إلى الواقع في حد ذاته... لأنه ببساطة غير موجود إلا في اللغة، مما يعني تحول اللغة إلى سجن يحل محل سجن العقل .

لنقل إن الاهتمام باللغة كظاهرة اجتماعية ونفسية، لا يمكن فصله عن تطورات الفلسفة الغربية منذ ارسطو وانتهاءً بالظاهراتية والهرمينوطيقية ، وكان الفكر اللغوي يتأثر دائماً بالتحولات المعرفية الجوهرية التي حفل بها تاريخ الفلسفة الغربية ، منذ القرن السابع عشر حتى الآن ، فحتى القرن السادس عشر كانت العلاقة... كما أسلفنا... بين الكلمة والشيء الذي تشير إليه ، أو بين الدال والمدلول ، علاقة

تشابه فقط ، وكان يصعب تأكيد المعرفة من دون رابطة حقيقية بين طرفي العلامة ، ومع التحول المعرفي التالي الذي امتد طوال العصر الكلاسيكي للفلسفة الغربية / السابع عشر والثامن عشر / ... تحول التشابه المفترض بين الدال والمدلول ، إلى التصوير والتمثيل ، وهو درجة متطورة في العلاقة بين طرفي العلامة ، وأصبحت عملية الدلالة يحكمها التكافؤ بين الدال والمدلول ، وفي نهاية القرن الثامن عشر، فتح الباب أمام الاستخدامات البلاغية والرمزية للغة قائمة على الدلالة المباشرة والصريحة ، ولم تعد اللغة مجموعة من الرموز أو الدالات التقليدية التي تمارس معها آليات المنطق الأرسطي عملها لتحديد الواقع والدلالة عليه عن طريق قنوات الحواس، وبذلك تم التأسيس لمفهوم اللغة كنظام له وحدته وتماسكه الخاصان به، ويختلف جوهرياً عن المفهوم الاستخدامي للغة .

<u>الشكلانين الروس</u> هم أول من بدأ التحرك في اتجاه التعامل مع اللغة كنظام، وكانت اللغة نقطة انطلاقهم في تأسيس علم الأدب ، والانتقال من النظام اللغوي إلى النظام الأدبي ، وهو تطبيق مبكر لأفكار سوسير حول الفارق بين اللغة والكلام، من حيث أن اللغة هي مجموعة القواعد المتفق عليها والتي تحتم استخدامها ... بينما الكلام هو تجسيد هذه القواعد في موقف بعينه ... أي أن اللغة هي النظام الكلي الذي يحكم العلاقات بين البنى الصغرى في الاستخدام العادي لها .

سوسير وضع العلامة وسط النسق اللغوي ، فالعلامة في رأيه لا توجد خارج النسق اللغوي، والنسق اللغوي نسق اختلافات بالدرجة الأولى ، وتحدث عن العلامة بشقيها – الدال والمدلول - ... ووجودها فقط داخل النسق ، وليس خارجه أو قبله ... يقول (**سواءً أخذنا الدال أو المدلول فإن اللغة ليس لها أفكار أو أصوات سابقة على النسق اللغوي ، بل اختلافات فكرية وصوتية تنشأ في النسق ، إن النسق هو الذي يوفر إمكانية العلامة ، أن هناك نسقاً وراء استخدامنا للغة ، نسق الثنائيات المتضادة ، فعلى مستوى الفونيم تشمل الأنفي والصائت ... المجهور وغير المجهور المتوتر واللين**).

<u>نيتشه</u> أيضاً يقول (**لغة الفرد هي التي تحدد معرفته بالعالم ، والمعرفة الوحيدة هي التي تأتي عن طريق اللغة**) ... ويقف/ **فوكو**/ نفس الموقف (**الحقيقة لاوجود لها ... واللغة فقط هي الموجودة**) وبذلك ينفي الازدواجية التي يسبق فيها وجود الأشياء في العالم الخارجي وجود اللغة بحيث تكون اللغة وفق ذلك الفهم أوعية شفافة تدل مباشرة على الأشياء... اللغة أصبحت أداة معرفتنا بالحقائق الخارجية ... واللغة إذن هي الحقيقة، لنلاحظ مثلاً أن هندسة الطبيعة ، المتمثلة بالمخمسات والمسدسات في الأزهار أو بلورات الثلج ، أو الألوان المتناسقة شديدة الانسجام في النباتات أو الكائنات الحية ، أو حتى صوت الموسيقى... كل هذه الأشياء لا وجود لها خارج لغة وعقل الإنسان الذي يشكل الطرف المكمل لوجود الخطاب... هي غير موجودة بالقطع بالنسبة للكائنات الأخرى ، لغة الهندسة واللون والصوت موجودة فقط في العقل البشري الذي يمكنه تلقيها ، ولا يكفي ظهورها خارجه في الطبيعة ليكتمل وجودها ومعناها ، كهمس لا تصل ترདداته أسماعاً غير مؤهلة لاستقباله أصلاً... وهذا بالأصل ما مهد الطريق للتفسير الماركسي لوظيفة اللغة وقدرتها على الدلالة ، حيث يؤكد الماركسيون على القيمة التاريخية للدوال التي تعطيها دلالات تراكمية تحددها الظروف التاريخية - الاقتصادية والاجتماعية – لمستخدمي تلك اللغة باعتبار أن وعي الفرد هو الذي يشكل لغته.

أما سارتر فيعلن : (**اللغة والثقافة لا توجدان داخل الفرد ، بل الفرد هو الذي يوجد داخل ثقافته ولغته**) ، في حين يقول هيديجر (**اللغة هي بيت الوجود ، فيها يقيم الإنسان ... وهؤلاء الذين يفكرون بالكلمات، هم حراس ذلك البيت، وحراستهم تحقق الكشف عن الوجود... واللغة ليست مادة خام جاهزة للاستخدام أو المعالجة ... الشعر مثلاً هو الذي يجعل اللغة ممكنة ، من حيث هو اللغة البدائية لأناس سابقين ، إن الوجود يكتشف من خلال اللغة فقط، ويبدأ لحظة كشف اللغة عنه ، وإن ما تقوم اللغة بتسميته هنا ليس شيئاً موجوداً مسبقاً ، لكنه يجيء إلى الوجود في نفس لحظة هذه التسمية أو هذا الإنشاء**) ويبدو من هذا أن الثالوث الذي يمحور فلسفة هيديجر هو ـ اللغة ـ الشعر ـ الوجود ـ ... ويقدم اللغة باعتبارها السجن الأبدي للإنسان، ولا يوجد شئ خارج اللغة ... فالإنسان حبيس سجن اللغة... وبالتالي أصبحت اللغة تتكلم عنا... أو من خلالنا .

في ظل هذه التفسيرات الجديدة لمفهوم اللغة ووظيفتها ، أصبحت اللغة تسحب من العقل صفاته... وأصبح للغة مكانة جديدة على أساسها يمكن فهم العالم والأشياء بشكل مختلف ، وبرزت تساؤلات جديدة ومستحدثة لم يكن بالإمكان إثارتها سابقاً... حول ما الذي يسبق الآخر الكينونة أم اللغة ؟ وهل نولد في الكينونة أم في اللغة ؟ وهل تسبق الكتابة الوجود أم العكس ؟ ... يخلص هيديجر إلى القول (**إن اللغة تكشف عن الكينونة التي تحتاج إلى اللغة التي تعبر عنها ، بسبب افتقادها للوجود المادي المحسوس من دون اللغة ... إذن لا يستطيع الإنسان إدراك الكينونة ...**) وهكذا ننتهي معه إلى القول بأن معرفتنا للعالم تتشكل في اللغة ... بل إن العالم في الواقع هو اللغة ... وإن الأصوات والألفاظ والكلمات ، هي التي تحقق وجود الأشياء... وتحدد قيمتها ، ولو كان العكس صحيحاً ... أي لو كانت الأشياء موجودة – سابقة الوجود - أي خارج اللغة ، لكان من المحتم أن تتشابه الأصوات والألفاظ والكلمات المستخدمة في اللغات المختلفة للدلالة على الأشياء نفسها ، لكن الأشياء توجد ، أو ندرك وجودها حينما يقوم العرف أو الاصطلاح بتثبيت العلاقة الاعتباطية بين العلامة اللغوية، والشيء الذي يشير إليه ، ومن هنا اختلاف (صوت) /dog/ في الإنكليزية عن /chien/ في الفرنسية و/كلب/ في العربية ... بل إن سوسير يذهب لا إلى إنكار الوجود السابق للأشياء قبل إدراك ذلك الوجود في اللغة فقط ... بل إنكار وجود الفكر ذاته خارج اللغة (**ليس للأفكار وجود سابق ، كما أنه ليس هناك شيْ واضح قبل ظهور اللغة**) ... وبذلك يكون قد أكمل الانقلاب ضد التفسيرات التقليدية عن شفافية اللغة التي سادت الفكر الأوروبي حتى بداية العصر الحديث للفلسفة في القرن السابع عشر. يشير/ تيري ايغلتون/... في كتابه (**نظرية الأدب**)... إلى أن إحدى الطرائق التي قد نقنع فيها أنفسنا بأن (**امتلاك المعنى أمر ممكن هي الإصغاء إلى صوتنا حين نتكلم، الأمر الذي لا يحصل بكتابة أفكارنا على الورق، ففي فعل الكلام نبدو متوافقين مع أنفسنا على نحو يختلف تماماً عما يحدث حين نكتب، في الحالتين هناك لغة، لكن كلماتنا الملفوظة تبدو حاضرة مباشرة في وعينا ، ويكون صوتنا بيئتها الصميمية، أما في الكتابة فإن معانينا قد تهرب من سيطرتنا عليها، ذلك أننا نعهد بأفكارنا إلى وسيط، هو القلم والورقة... أو الآلة الطابعة، وبما أن للنص المكتوب وجود مادي يمكن من خلاله نشره... وإعادة إنتاجه أو اقتباسه، واستعماله بطرائق لم نكن نقصدها أو نتنبأ بها، فيكون كلامنا المكتوب سالباً لذاتنا**

بشكل أو بآخر، الكتابة صيغة غير مباشرة للاتصال، لذا فهي متفاوتة البعد والقرب من وعينا)، وقد يكون هذا هو السبب في أن التقليد الفلسفي الغربي من إفلاطون إلى شتراوس، قد حط من قدر الكتابة بوصفها شكلاً ميتاً ومغتربا من التعبير، بينما كان دائم الاحتفاء بالصوت الحي، وتكمن خلف هذه النظرة مسألة النظر إلى الانسان باعتباره عفوياً قادر على خلق معانيه الخاصة به والتعبير عنها، وعلى امتلاك نفسه والسيطرة على اللغة بوصفها وسطاً شفافاً يمكن من خلاله التوصل إلى المعنى... مقاصد الذات.

وقد ساير الدارسون اللغويون العرب هذا الاتجاه ، في محاولة لتمثل التطور الحاصل لمفهوم اللغة... يقول أحدهم (**إن إنكار الوجود المسبق للأفكار قبل التعبير عنها باللغة ينفي أسبقية الفكر على اللغة من جهة ، ودخول أي صوت في منطقة الوضوح قبل اقترانه بالفكر في اللغة من جهة أخرى ... فالصوت حسب سوسير لا يقل إبهاماً عن التفكير في هذه الحالة ، والدور المميز للغة فيما يتعلق بالتفكير ، ليس خلق وسائل صوتية مادية للتعبير عن الأفكار ، ولكن الربط بين الفكر والصوت ، وبهذا لا تمنح الأفكار شكلاً مادياً ، كما أن الأفكار لا تتحول إلى كينونات عقلية . بل يتحد الفكر بالمادة الصوتية ويتثبت بالصوت ، ويصبح الصوت علامة على الفكرة ، وبذلك يترابطان ، وارتباطهما ينتج صيغة لا مادة .**) عز الدين اسماعيل.

دارس عربي آخر هو د. <u>عبد العزيز حمودة</u> يحيل إلى فهم معتدل أو منطقة وسط في هذا الصدد يقول (**قد يقبل البعض منا المقولة السوسيرية في صورتها الأولى ، وفي صورها المطورة المبالغ فيها حول أن اللغة سابقة للوجود ... وقد يرفضها البعض ... ويحاول البعض الآخر إيجاد منطقة وسط يلتقي عندها الطرفان ، لكن الموقف الذي يصعب الاختلاف عليه هو التوحد الكامل للفظ والمعنى، وهو توحد يصعب الفصل على أساسه بين طرفي العلامة اللغوية ، وتأكد هذا في اللغويات الحديثة منذ بداية القرن العشرين بعد أن انتهى علم اللغويات إلى مبدأين أصبحا من قبيل المسلمات .**

- <u>أولاً</u> رفض شفافية اللغة كمفهوم تقليدي قائم على أساس وجود الأشياء خارج اللغة ، ويعبر عنها بأصوات أو ألفاظ ، كأن اللغة مجرد وعاء شفاف يظهر الأشياء أو المواد بداخله ، شفافية اللغة بهذا المعنى تعني وجود الشيء وممثله اللغوي منفصلين ، أما اليوم وبعد أربعة قرون من تطور الفكر الفلسفي واللغوي الأوروبي ، فلم تعد اللغة تمثل الأشياء ذاتها ، بل مفاهيم الأشياء، وطورت أيضاً الدراسات اللغوية الحديثة ابتداءً من سوسير ، مقولة مغايرة تماماً للمفهوم التقليدي السابق عن تمثيل اللغة للأشياء ، مؤداها أن الوجود لا يدرك إلا في اللغة ، ومن ثم فهو ليس سابقاً على وجود اللغة ...

- <u>وثانياً</u> القول باعتباطية العلاقة بين اللفظ والمعنى – الدال والمدلول - وهي علاقة يقيمها العرف الاجتماعي أولاً ثم يثبتها تالياً ... ومن ثم لا يصبح بإمكان مرسل واحد للعلامة اللغوية ، أو مستقبل واحد لها أن يتفقا على فصم العلاقة أو تغييرها بعيداً عن عرف الجماعة).

أخيراً قد لا نجد حرجاً في قول التالي:

كما كانت الفلسفة الغربية صوتية التمركز، وشديدة الارتياب بالتدوين، فقد كانت أيضاً منطقية التمركز، / حسب تعبير تيري إيغلتون/ مستسلمة لاعتقاد أو إيمان... بكلمة مطلقة... أو حضور... أو جوهر... أو حقيقة، أو واقع يعمل كأساس لتفكيرنا، ولغتنا وتجربتنا، فهي تواقة إلى الدليل الذي يضفي

معنى على كل الأدلة الأخرى... الدال المتعالي، والبعيد عن الشبهة... الذي يمكن رؤيته، يندفع عدد ضخم من المرشحين لهذا الدور... الله... المثال... روح العالم... الذات ... الجوهر... المادة، وهلمجرا... وبما أن كلاً من هذه المفاهيم يأمل بأن يؤسس كامل نظام فكرنا ولغتنا، فلا بد أن يكون هو نفسه فوق هذا النظام، لا بد أن يكون فوق هذه الخطابات ومتفوقاً عليها، وموجوداً قبل وجودها، لا بد أن يكون معنى... معنى للمعاني... نقطة الارتكاز لكل نظام فكري كامل، والدليل الذي تدور حوله الأدلة... وتعكسه طواعية، ولكن أليس كل معنى على هذا النحو هو محض تخيل؟... قد يكون كذلك... لكنه تخيل ضروري لتسبيب الأشياء؟ لإقامة قاعدة فكرية مؤسسة لفعل... لتبرير فعل... قد تكون هذه إحدى النتائج المنطقية التي تتوصل إليها نظرية اللغة التي أقامها علماء اللغة واللسانيات، فليس ثمة مفهوم غير متورط في لعب تدليل ذي نهاية مفتوحة، وشظايا أفكار أخرى... وهكذا فإن تعظيم العلم مثلاً، والإقرار بأن الديمقراطية الغربية تمثل المعنى الحقيقي لكلمة الحرية، تجعل من الايديولوجيا بهذا المعنى ميثولوجيا معاصرة، هدفها إبعاد الذات الأوربية المركزية عن الالتباس... جعلها مركزية التأثير... حتى في نزع الإلفة عن الطبيعة والكون والأشياء... حيث يرى إيغلتون أن (**الدليل الواقعي هو بالنسبة لبارت غير مفيد في جوهره، فهو يطمس حالته الخاصة كدليل لكي يعزز الوهم الذي يوحي بالواقع دون تدخله، لأن الدليل بوصفه انعكاساً أو تعبيراً أو تمثيلاً... ينكر الطابع الانتاجي للغة، حيث ينكر واقعة أننا لا نملك عالماً إلا لأننا نملك لغة تدل عليه، ودليل بارت المكرر يومئ إلى الوجود المادي الخاص في ذات الوقت الذي ينقل فيه معنى، فهو حفيد لغة الشكلانيين الروس... حفيد الكلمة الشعرية الجاكبسونية التي تتباهى بكينونتها الألسنية الملموسة... حفيد... وليس ابناً ، لأن الذرية الأولى للشكلانيين هم الفنانون الاشتراكيون في المانيا - وبريخت من بينهم، الذين استخدموا هذه الصنعات التغريبية لأهداف سياسية، والتي أصبحت صنعات شكلوفسكي وجاكبسون المغربة بين أيديهم أكثر من مجرد وظائف لفظية... أصبحت أدوات شعرية... وسينمائية... ومسرحية... من أجل نزع طبيعة... ونزع إلفة المجتمع السياسي، مظهرة كم هو موضع شك عميق ما يعتبره كل منا واضحاً مثل بديهية... كم كان هؤلاء الفنانون أيضاً ورثة المستقبليين البلاشفة وغيرهم من الطليعيين الروس، وماياكوفسكي والجبهة اليسارية في الفن ودعاة الثورة الثقافية في سوفييت القرن العشرين).**

أخيراً قد يكون من المفيد والمثير في آن ، ذكر قول لـ (ا بن طباطبا) ... المؤرخ والمفكر العربي ، قاله منذ أكثر من عشرة قرون (**الكلام الذي لا معنى له ، كالجسد الذي لا روح فيه... للكلام جسد وروح ، جسده النطق، وروحه معناه ...**)

المراجع:

- د. عبد العزيز حمودة – المرايا المحدبة –
- سقوط الحداثة - آلان تورين - وزارة الثقافة
- في نقد الحداثة -أدغار موران - وزارة الثقافة
- د. جابر عصفور –نظريات معاصرة -
- السيميائية - منشورات وزارة الثقافة - ترجمة د. ثائر ديب
- تيري إيغلتون - نظرية الأدب -
- البنوية –د يمنى العيد –
- النقد والدلالة - محمد عزام - وزارة الثقافة
- مقالات منشورة للدكتور عز الدين اسماعيل في الصحافة الالكترونية